

## المحور الرابع

### II- الرأسمالية الصناعية وعلم الإقتصاد السياسي: التحليل

كانت هيمنة الرأسمالية الصناعية، النتيجة الحتمية للمرحلة الانتقالية المستمرة، منذ تفكك الاقطاع، وترافق معها عملية تحول فكري عميق، حيث لم يكن النشاط الاقتصادي وحده هو الذي يتحرك، ويتطور، ولكن في غضون ذلك كان العلم الاقتصادي، يؤشر على مرحلة حاسمة من أجل التأسيس، ويؤكد ذلك عملية الانتقال من الفكر الاقتصادي التجاري، الى العلم الاقتصادي للمدرسة الكلاسيكية. والحقيقة أنه ليس فقط بمجيء الكلاسيكيين سوف ينشأ العلم الاقتصادي ويتأسس، على مناهج علمية، ويمتلك نظرياته، فقد كان لأواخر التجاريين مثل تشايلد، نورث، وديفيد هيوم، كان لهم فضلا بالغا في ارساء مبادئ الليبرالية، ومناهج التفكير العلمي، تلك التي اعتمدها مفكروا الكلاسيكية<sup>(11)</sup>.

شهدت إنجلترا أوساط القرن الثامن عشر بداية الثورة الصناعية، التي جاءت نتيجة تطور العلوم وتحرر العقل، من أسر القضايا الدينية التي كانت تقيد التفكير. وكان للمرحلة الماركنتيلية الفضل في طرح القضايا والمشكلات الاقتصادية، كمواضيع دراسة يتميز بها التفكير الاقتصادي، فكان أنطوان دي مونكريتيان هو أول من وضع مؤلفا خصه بالإقتصاد السياسي، وأمكن القول أن الإقتصاد السياسي كجنين، حمل مع فكرة القيمة عند ابن خلدون، ونمى وتطور في آراء ونظريات التجاريين، في ثروة الأمة، السياسة المعدنية، تدخل الدولة، التجارة الخارجية، فإنه لا محالة تأتي مرحلة النشأة ووضع الأسس لكي يبني عليها هذا العلم<sup>(12)</sup>.

لقد كان لتطور العلوم عامة وخاصة في جانبها التقني العامل الحاسم الذي نقل طريقة الإنتاج إلى مراحل جد متقدمة في هذه الفترة. فقد حققت الثورة التكنولوجية تحولا كفييا في الصناعة من اليدوية إلى الصناعة الآلية، يتم العمل بواسطة آلات

تدار بواسطة المحركات وتستخدم الطاقة. من اهم مظاهر التقدم الفني، إختراع المحرك ( ذي فبريك 1675- 1700، هيوجنس الأسطوانات، الآلة البخارية 1700-1725، نيوكومان آلة بخارية 1725 – 1750، سينجر آلة التوربين المائية 1750 – 1775، الآلة البخارية لجيمس وات 1775 – 1825، ... ). وقد أثرت هذه الإبتكارات على تحديث الصناعة وأدت إلى ظهور صناعات جديدة.

في مخاض هذه التحولات، كانت الأفكار الإقتصادية غير بعيدة عن الاحداث، فهي تتابع وتتظر للوضع باستخدام مختلف المناهج العلمية والطرق الإستدلالية. فقد جاءت النظريات هذه المرة في شكل مدرسة فكرية، بمولد الثورة الصناعية، جاءت المدرسة التقليدية أو الكلاسيكية، وهي بإجماع علماء الإقتصاد، الإطار الفكري الذي نظر للثورة الصناعية، وكان هو المعبر عن الليبرالية التي سادت هذه الفترة.

#### أ- إهتمامات الكلاسيكية:

تهتم بالتصرفات الإقتصادية الجزئية، بمعنى تلك التي تنجم عن الفرد، وما يرتبط بالمصلحة الفردية، مثل مسائل القيمة، الأسعار، المداخيل، وترفض أن تنظر نظرة كلية لواقع القضايا الإقتصادية، اعتقادا بأن المجموعة الكلية ما هي إلا تجميع للجزئيات.

الكلاسيكية فلسفة سكونية، تنصب دراستها على واقع إقتصادي معين ضمن فترة زمنية معينة، إلا أن عدم إدخال عامل الزمن في التحليل، لا يعني عدم الإهتمام بالتطور الحاصل في الظواهر الحركية ( السكان، تطور رأس المال )، يجعلها نظرية سكونية التحليل ولكنها حركية المحتوى.

ما ذهبت إليه الكلاسيكية هو من قبيل الليبرالية وترى أن المصلحة الفردية تختلط بالمصلحة الجماعية وأن " اليد الخفية " تضمن الإنسجام بين المصالح.

عرفت الكلاسيكية من خلال نظريات وآراء عديد من المفكرين العمالقة مثل،  
أدام سميث الذي هو أب الكلاسيكية، ثورة الأمم 1776، روبر مالتوس، دافيد  
ريكاردو، ستيوارت ميل، والفرنسي فرنسوا كيني، و بيب تيسست ساي.

1- **أدام سميث: 1723-1790.** كان أستاذا للأدب الانجليزي ثم للاقتصاد السياسي  
والمنطق، بجامعة جلاسكو وجامعة أكسفورد ، في آخر أيامه كان موظفا ساميا في  
الجمارك، يعتبره كثير من الباحثين أب الإقتصاد السياسي<sup>(14)</sup>.

يمكن تحديد أهم الأفكار التي تمحور عليها فكره:

أ- **القوانين الأساسية:** وهي قوانين طبيعية، تلهم الأفراد والمجتمعات في تصرفاتهم،  
تستند على معطيات نفسية، فالناس يتعلقون بمصالحهم بصفة عفوية، نتيجة لدافع  
الغريزة البشرية. من الإصلاح حماية هذه العفوية والحفاظ على هذه الحرية الشخصية  
لأن ذلك يؤدي إلى مصلحة الجميع.

ب- **العمل أساس قيمة المواد:** اختلافا عن الماركنتيل الذين يرون مصدر الثروة هو  
تراكم رأس المال، وعن الفيزيوقراطيين الذين يعتبرون أن سر الإنتاج كمرتبط  
بالأرض والطبيعة، الكلاسيكيون وسميث يعتبرون العمل البشري هو الذي يزيد في  
قيمة المنتوجات (فكرة مشابهة لما عند ابن خلدون) والطاقة البشرية هي الإمكانية  
الإقتصادية افولى التي قد تمتلكها المم، وأبعد من هذا، يذهب أدام سميث إلى وضع  
العمل كمقياس لقيمة المواد، أي ثمن سلعة يعادل مجموع وقت العمل الذي قضى  
في إنتاج تلك السلعة. لاحظ أن تقسيم العمل داخل المجتمعات أو داخل المعامل يؤدي  
إلى الدفع المرذود، لذلك شجع على التخصص في الإنتاج. وهو منهجه في عملية  
البحث في اسباب تكون ثروات الامم كما ضمنها تحليله، في مؤلفه "ثروة الامم"<sup>(15)</sup>.

ج- **توزيع الدخل:** وهي مرتبطة بنظريته عن القيمة، ففي آخر التحليل وجد أن قيمة السلع تعادل مجموع كلفتها أي مجموع الفوائد التي حصل عليها الأفراد أثناء دورة الإنتاج وهي عائد الأرض، عائد رأس المال، وعائد العمل.

ويتسم الإقتصاد عنده بندرة الموارد الطبيعية، بسبب تزايد السكان، وكذلك استعمال الإنسان للآلات والمعدات أي لرأس المال، استطاع أن يكونه بفضل عمله أو نتيجة لتراكم وقت عمله، الذي قضاه في صناعة هذه المعدات ، ويؤدي هذا الاستعمال الى ظهور عائد خاص برأس المال ، لتصبح كلفة السلع تشمل ثلاثة عوائد: الأجر، الربح، الفائدة. وهي العوائد التي تقابل ثلاثة عوامل للإنتاج: العمل، الأرض، رأس المال<sup>(16)</sup>.

د- **معطيات التنمية الإقتصادية:** أساس التنمية الإقتصادية عند أدام سميث هو تراكم رؤوس الأموال الناتجة عن فائض الإنتاج، على أساس ان يوجه هذا التراكم لاستثمارات جديدة، كما يعتبر أن سر التقدم الإقتصادي هو ادخار الفائض قصد استثماره بعد ذلك.

ه- **التجارة الخارجية:** أما التجارة الخارجية فيعتبرها أدام سميث أحد أهم مصادر التقدم الإقتصادي، لذلك طالب بتشجيع المبادلات التجارية ولكنه يدافع عن قرارات " كروميل " الشهيرة التي تمنع استعمال سفن تجارية غير بريطانية وتفرض رسوما جمركية على السلع المستوردة وهو ما يتناقض مع المذهب اللبيرالي، الشيء الذي يعني أن الكلاسيكيين مستعدون للتخلي عن اللبيرالية إذا ما رأوا أن بها ما يضر مصلحة أمتهم<sup>(17)</sup>.

2- **روبير مالتوس:** مفكر إنجليزي ( 1766 - 1836 )، كان راهبا بروتستانتيا عمل أستاذا للتاريخ والإقتصاد، إشتهر بكتابه " مبادئ السكان " 1798، الذي وضع فيه

نظريته المشهورة عن السكان له مؤلف آخر في الإقتصاد السياسي هو " مبادئ الإقتصاد السياسي " صدر سنة 1820.

شهدت نهاية القرن الثامن عشر ظاهرة تزايد عدد السكان مقابل انخفاض في الإنتاج الزراعي لعدة سنوات متوالية. ورأى كودوين أن السبب يعود إلى عدم فعالية المؤسسات السياسية والإقتصادية والإجتماعية. إلا أن مالتوس عارض هذه النظرية وقال بأن إصلاح المؤسسات لا يجلب أية فائدة، وأن السر في فقر السكان وبؤسهم هو كون عدد السكان يتزايد بمعدل يفوق تزايد الإنتاج الزراعي، ذلك أن الطبيعة بخيلة وشحيحة ولا ترضي حاجيات الجماعة الإنسانية، وفي رأيه يتزايد السكان وفق متتالية هندسية، بينما يتزايد الإنتاج بمتتالية حسابية، ونتيجة ذلك أن يحدث عدم التوازن على المدى البعيد بين عدد السكان والإمكانات الغذائية الممكن توفيرها، كما أن التوازن لا يمكن ان يحدث في نظر مالتوس إلا بسبب الحروب والمجاعات ونهج سياسة تحديد النسل هذه النظرية داع صيتها وعرفت طريقها إلى التطبيق في البلدان المخلفة<sup>(18)</sup>.

في الجانب الإقتصادي البحث، وفي كتابه " مبادئ الإقتصاد السياسي "، أظهر مالتوس أفكارا دلت على عبقرية فذة، وعمق في التفكير والتنبؤ بالأحداث وتطور الظواهر. فقد تتبع أولى أزمات الرأسمالية سنة 1815 معترفا بواقعها على عكس الكلاسيكيين الآخرين الذين رفضوا الإقتناع بوجود الأزمة وذلك بسبب إعتقادهم في نظرية التوازن الآلي الذي يضمن استمرارا منسجما للحياة الإقتصادية. وقد ردها مالتوس إلى ارتفاع كبير في الادخار، على حساب الإستهلاك، وكنتيجة لهذا دعى إلى رفع مداخيل الطبقات المستهلكة. كما ألح على تدخل الدولة في الشؤون الإقتصادية<sup>(19)</sup>.

3- **دافيد ريكاردو**: ولد في لندن وعاش بين (1772-1823)، عمل في البنوك والبورصة، وكان عضو مجلس العموم البريطاني ألف " مبادئ الإقتصاد السياسي والضرائب"، وهو أشهر كتبه. وهو أحد أعلام المدرسة الكلاسيكية من الناحية النظرية، لأن أفكاره كانت ضمن قوالب نظرية وتحاليل تجريدية. دعم نظرية سميث في القيمة المرتكزة على العمل، وقدم نظريته في الربح وهي الشهيرة، وكذلك في التجارة الخارجية<sup>(20)</sup>.

أ- **نظرية الربح**: تركز نظرية الربح عند ريكاردو على أساسين هما قانون المردود المتناقص للأرض، اتساع رقعة الأرض المستعملة بسبب تزايد السكان. فهذا القانون مفاده أنه إذا تجاوزنا حدا ما من إنتاج الأرض، يصبح ارتفاع الإنتاج أقل تناسبا من ارتفاع قيمة عوامل الأرض ( عمل، رأس المال، الأرض )، بمعنى أن كلفة الإنتاج تزايد أكثر من تزايد الإنتاج. أما الأساس المرتبط بالسكان، فيعني أن تزايد السكان يؤدي إستعمال أراضي جديدة أقل جودة، وأبعد عن الأسواق، ومعناه أن كلفة الأراضي الجديدة، أعلى من كلفة الأراضي الأولى. ويلعب هذان الأساسان دورهما في الأراضي الرديئة في رفع أسعار الإنتاج ويعادل هذا السعر كلفة الأرض الأقل جودة، الشيء الذي يجعل أصحاب الأراضي الجيدة يجنون الربح، وهو ما يسمى بالربح التفاضلي المتعلق بطبيعة الأرض<sup>(21)</sup>.

ب- **نظرية التجارة الخارجية**: وهي من نظرياته الشهيرة، كان لها تأثير في السياسة الخارجية لبريطانيا، كما تنبأت النظرية بتوزيع العمال العالمي ( التخصص ).

4- **جون ستيوارت ميل**: ابن الفيلسوف والاقتصادي الانجليزي جيمس ميل، عاش بين ( 1806 - 1873 )، كان موظفا بشركة الهند الشرقية وعظوا بمجلس العموم. له كتاب في "المنطق" وأشهر مؤلفاته "مبادئ الإقتصاد السياسي" سنة 1848.

درس كل أفكار الكلاسيكيين وقدمها بشكل أكثر جاذبية، تأرجح بين الليبرالية وتدخّل الدولة في إجراء الإصلاحات، ثم غلب عليه الطابع الليبرالي، فقد دعى إلى عدم مغالاة الدولة في فرض الضرائب، ووضع القوانين، كما يرى أن مهمة الدولة هي القطاعات التي لا يستطيع الأفراد تسييرها، مثل التعليم وبناء الطرق والموانئ، واستعمار البلاد الخارجية، لأن ذلك يعود بالنفع الكبير على المجتمع<sup>(22)</sup>.

تتعدد آراء الكلاسيكيين ولكنها تلتقي في المحاور الأساسية والمتعلقة بالقيمة، ونظرية التوزيع، ونظرية التجارة الخارجية، ونظريات تلتقي في إمكانية التفسير والتنبؤ، وأخرى تجد مكانا لها في واقع الحياة العملية، ولا يمكن حصر فكر الكلاسيكيين وعدد منظرهم، أمثال ( فرنسوا كيني، جون بابتست ساي، دونواي، باستيا،...)، والمهم لنا هو أن تفكير هؤلاء، وفي هذه المرحلة قد اتجه اتجاهها علميا، بكل معنى دقيق لكلمة العلم. فلقد كان الإقتصاد السياسي بهذا الوصف، لأنه حاول تخطيط السبل التنظيمية، لإغناء الأمم ( التجاريون والتقليديون )، وكذلك الأفراد، وعلى الرغم من تزايد الطابع العلمي للإقتصاد، فذلك لم يفقده طابعه السياسي، بل هو يتدعم يوما ما بعد يوم، ومرحلة بعد أخرى، كما أن التطور الطبيعي السياسي، والعلمي مترابط ومتوازن في آن واحد، وذلك عائد إلى كون الصبغة السياسية للإقتصاد، تتدعم أكثر فأكثر بسبب ضرورة وجود قوى سيطرة، قوى تنظيمية في مرحلة ميلاد الإقتصاد السياسي، وحتى يومنا هذا وهذه الصبغة السياسية، كانت دائما بحاجة إلى الصبغة العلمية لأن الفلسفة لم تضمن للإقتصاد قوانينه، الكفيلة بالتطور. فالعلم هو الذي فرض للإقتصاد قوانين عامة صحيحة، ولا تناقض صحتها في كل الدول والمراحل التاريخية، فالتقدم الاقتصادي يمر مثلا عبر البنية الأولية، ( الزراعية ) ثم ينتقل إلى البنية الثاني ( الصناعية )، وغيرها من القوانين،.....

**هوامش المحور الثالث:**

(1)- محمد حامد دويدار. مرجع سابق. ص.105.

(2)- نفس المرجع. ص. 108.

(3)- نفس المرجع. ص. 120.

(4)- نفس المرجع. ص. 121.

(5)- نفس المرجع. ص. 125.

(6)- نفس المرجع. ص. 125.

(7)- نفس المرجع. ص. 126.

(8)- نفس المرجع. ص. 128.

(9)- نفس المرجع. ص. 128.

(10)- نفس المرجع. ص. 128.

(11)- Gilles Dostaler. Transition Et Pensee Economique Dans

L Histoire. Cahiers De recherche

Sociologique. Vol.1septembrePp.19-35. P.

28

(12)- محمد حامد دويدار مرجع سابق. ص. 134

(13)- نفس المرجع. ص. 129.

(14)- Gilles Dostaler. Op. Cit. p. 29.



Ibid. p.32. -(15)

(16)- في الفصول الخمسة الأولى من مؤلفه الشهير " بحث في أسباب وطبيعة ثروة الأمم" يبين أبو الاقتصاد السياسي، أدام سميث الدور الذي يلعبه كل عنصر، من عناصر الانتاج، ويقسم ادوارها، في عملية تحديد الأسعار في السوق، وتحديد قيمة المواد، وقيمة العمل، وأن ذلك من الأمور الطبيعية، ان أن القوانين الطبيعية تحكم عمل الأسواق خاصة، والنشاط الاقتصادي عامة، ومن الأهمية بمكان لطالب الاقتصاد السياسي الاطلاع على هذه النظريات في: Adam Smith. An Inquiry Into The Nature And Causes Of The Wealth Of Nations.

Metalibri. New York.2007. pp.7-97.

(17)- يأخذ الكثيرون من المؤلفين، على ادام سميث، وعدد اخر من المنظرين الاقتصاديين الكلاسيك، امكانية عودتهم عن قناعاتهم الليبرالية، في حالة ما اذا تعارضت الأخيرة مع المصالح القومية، وهذا ليس بالضرورة، وليس له قاعدة، فالمواقف النظرية تقاس بالظروف التي توجد فيها، حتى لا تمر المغالطات الأيديولوجية التي، كثيرا ما تحكم فكر، وتنظير بعضهم من جميع المدارس، والمذاهب، يمكن الاطلاع على المواقف الحقيقية لأدام سميث، الواردة في مؤلفه سابق الذكر: Ibid. pp. 535-675.

(18)- Abel Brodeur. Etat. Economie Et Population. Mémoire de metrise en economie. Universite De Quebec. Services Des Bibliotheques. Juillet 2010. P. 19.

(19)- يمكن الاطلاع على المزيد حول مبدأ تطور السكان وموقف مالتوس من الدولة، ومؤلفه حول السكان، "بحث في مبدأ السكان" في: Alain Beraud. Samuel Holander, The Economics Of Thomas Robert Malthus, Studies In Classical Political Economy. Cahiers De L Economie Politique. Vol. 42.N. 01. L Harmatan. Toronto. 2002. Pp. 169-175.(20)- محمد حامد دويدار. مرجع سابق. ص. 152.

(21) - Abel Brodeur. Op. Cit. p.27.

(22)- أشتهر جون ستيورت ميل بكتابه المميز على الاطلاق " مبادئ الاقتصاد السياسي"، الذي صدر سنة 1848، ولأول مرة في الفكر الليبرالي الاقتصادي، يظهر مؤلف يدرس تاثير التطور الاجتماعي، على عملية الانتاج والتوزيع، كما يحدد فيه اهمية دور الدولة، في الشؤون الاقتصادية. ويبدأ ميل مؤلفه بعملية الانتاج، والأسس الضرورية لها، ثم يحلل عنصر العمل، كعنصر أساسي، ثم راسالمال، المنتج والثابت... لمزيد من الاطلاع في هذا الشأن يجب العودة من الافضل الى مؤلفه كما يلي: John Stewart Mill. The Principles Of Political Economy, With Some Of Their Applications To Social Philosophy. The University Of Adelaide. Ebooks. 2014.